قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة الثامنة حول عصر الموحدين: السلطة المركزية والهيمنة السياسية

أولاً: مقدمة المحاضرة (الإطار المفاهيمي والتأطير الإشكالي)

يمثل الصعود الموحدي في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) تحولاً بنيوياً في تاريخ الغرب الإسلامي؛ حيث انتقلت السلطة من "عصبية لمتونة" الصحراوية إلى "عصبية المصامدة" الجبلية، ولكن تحت غطاء أيديولوجي جديد كلياً وهو **"المهدوية."** لم تكن الدولة الموحدية مجرد وريث جغرافي للمرابطين، بل كانت مشروعاً لإعادة بناء المجتمع والدولة وفق عقيدة "التوحيد" التي صاغها **ابن تومرت** .لقد تميزت هذه الدولة بـ **"المركزية الحادة"**، حيث أصبحت "مراكش" قطب الرحى لقرار سياسي يمتد من حدود برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن قشتالة شمالاً إلى أعماق الصحراء جنوباً.

الإشكالية المركزية للمحاضرة:

كيف استطاع الموحدون تحويل "حركة ثورية جبلية" إلى "دولة مؤسسات" عالمية؟ وما هي الآليات التي اعتمدتها السلطة المركزية لفرض هيمنتها السياسية على مجال جغرافي ممتد ومتناقض (الأندلس والمغرب)؟ وكيف ساهم التنظيم الهرمي (مجالس الموحدين) في الحفاظ على تماسك الإمبراطورية أمام التحديات الداخلية والخارجية؟

ولتفكيك هذه الإشكالية، سنعالج الموضوع عبر المحاور الآتية:

1. **المحور الأول :**الأسس الأيديولوجية والشرعية (عقيدة التوحيد والمهدوية).
2. **المحور الثاني :**عبقرية التنظيم المؤسساتي (هيكلية "الجماعة" ومجالس السلطة).

3. **المحور الثالث :**الهيمنة السياسية وتوحيد المغرب الكبير والأندلس.

4. **المحور الرابع :**تحديات المركزية وأسباب التآكل السياسي.

المحور الأول: الأسس الأيديولوجية والشرعية (عقيدة التوحيد والمهدوية)

لم يكن إسقاط إمبراطورية عظمى كدولة المرابطين ممكناً بمجرد التمرد العسكري لبعض قبائل المصامدة في جبال الأطلس العالي. لقد أدرك **محمد بن تومرت** بعبقريته السياسية أن السلطة المرابطية تستمد قوتها من "الشرعية الفقهية" (المالكية) ومن "الشرعية الدستورية" (التبعية للعباسيين). لذا، كان لزاماً عليه هندسة منظومة أيديولوجية بديلة وأكثر جذرية تقوض أركان الخصم وتمنح حركته قدسية مطلقة، وهو ما تجلى في ثلاثة أسس مركزية:

" .1المهدوية" والعصمة الإمامية (احتكار الحقيقة)

تجاوز ابن تومرت فكرة كونه مجرد "مصلح ديني" أو "فقيه متمرد"، ليُعلن نفسه في سنة 515هـ (1121م)" **المهدي المنتظر** "والإمام المعصوم. هذا الإعلان لم يكن مجرد ادعاء غيبي، بل كان "ضربة سياسية" محكمة؛ فبإعلانه العصمة، سحب ابن تومرت حق التشريع من فقهاء المالكية (سند المرابطين)، وجعل طاعته معادلة لطاعة الله ورسوله، ومعصيته كفراً صريحاً.

- أدى هذا الطرح إلى تحويل سلطة المركز (شخص المهدي ثم خلفائه) إلى سلطة "ثيوقراطية" مطلقة لا تخضع للمساءلة القبلية أو الفقهية، مما ضمن تماسك الجبهة الداخلية للمصامدة تحت قيادة مركزية مقدسة.

نص تاريخي مؤسس :يقول البيذق (مؤرخ الدولة الموحدية وشاهد عيان) في وصف بيعة ابن تومرت" *بوقام إليه عبد المؤمن بن علي فقال له: أنت والله المهدي الذي بشرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم... فبايعوه على السمع والطاعة في العسر واليسر والمكره والمنشط، وعلى أن يقاتلوا دونه كقتالهم دون أنفسهم وأبنائهم.*(1) "

.2احتكار "التوحيد" وتكفير الخصم السياسي

أطلق ابن تومرت على أتباعه لقب **"الموحدين"**، وهو مصطلح إقصائي بامتياز في سياقه السياسي. بالمقابل، اتهم المرابطين بـ "التجسيم" والتشبيه (بسبب فهمهم الحرفي لبعض آيات الصفات)، وأطلق عليهم لقب "المجسمين."

- **الأثر السياسي لهذا التكفير :**إن اعتبار المرابطين "خارجين عن التوحيد الصحيح" أدى إلى تحويل الحرب ضدهم من مجرد "فتنة سياسية" أو صراع قبلي بين صنهاجة والمصامدة، إلى **"جهاد مقدس** ."هذا الغطاء الشرعي أباح للموحدين استباحة دماء وأموال المرابطين دون حرج ديني، وشرعن عملية الاستئصال العنيف للسلطة القديمة.

.3القطيعة الدستورية مع المشرق (تأسيس الخلافة المستقلة)

بعد وفاة ابن تومرت، أدرك خليفته **عبد المؤمن بن علي الكومي** أن توسع الدولة وتمددها في المغرب والأندلس يتطلب الانتقال من شرعية "الحركة" إلى شرعية "الدولة."

- بينما اكتفى المرابطون بلقب "أمير المسلمين" اعترافاً بالسيادة الروحية للخلافة العباسية، أعلن عبد المؤمن القطيعة التامة مع المشرق الإسلامي. وتلقب بلقب **"أمير المؤمنين"**، مؤسساً بذلك لـ "خلافة موحدية" مستقلة وذات سيادة مطلقة في الغرب الإسلامي.
- هذا الإعلان كان بمثابة استكمال للمشروع السيادي، حيث أصبحت مراكش عاصمة عالمية لا تدين بالولاء لبغداد، بل تنافسها على زعامة العالم الإسلامي بأسره.

الهوامش :

(1)أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيذق)، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971)، 22-23.

(2)عبد الواحد المراكشي، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978)، 254-256.

(3)عز الدين عمر موسى، *الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم*)بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991)، 45-48.

المحور الثاني: عبقرية التنظيم المؤسساتي (هيكلية "الجماعة" ومجالس السلطة)

أدرك الموحدون باكراً أن الحماس الديني والاندفاع القبلي غير كافيين لبناء إمبراطورية مستدامة، فقاموا بـ "مأسسة" حركتهم من خلال نظام تراتبي دقيق يدمج بين السطوة الروحية للإمام، والتمثيل القبلي للمصامدة، والكفاءة البيروقراطية. لقد شكلت هذه الهيكلية "دولة عميقة" ربطت المركز (مراكش) بأبعد الأطراف في الأندلس وإفريقية. تجسد هذا التنظيم المؤسساتي في الهياكل والمجالس الآتية:

.1مجلس الجماعة (مجلس العشرة): النواة الصلبة للسلطة

يمثل هذا المجلس قمة الهرم السياسي بعد "الإمام/الخليفة". ويتكون من الرعيل الأول الذين بايعوا ابن تومرت في بدايات دعوته (أهل تينمل).

- **صلاحياته :**كان بمثابة "القيادة العليا" أو "المكتب السياسي" للدولة؛ حيث يُستشارون في كبريات الأمور كالقرارات السيادية، وإعلان الحرب، وتعيين كبار الولاة، وحتى في اختيار الخليفة. ورغم أن سلطة الخليفة (عبد المؤمن وخلفائه) أصبحت وراثية ومطلقة لاحقاً، إلا أن المشاورة الشكلية لمجلس العشرة بقيت ضرورة دستورية لإضفاء الشرعية.

.2مجلس الخمسين (آيت خمسين): البرلمان القبلي

هو هيئة تمثيلية أوسع، تضم ممثلين عن كبريات قبائل المصامدة (مثل: هرغة، هنتاتة، تينمل، جدميوة، وغيرها).

- **صلاحياته :**كان أشبه بـ "مجلس شيوخ" قبلي. وظيفته الأساسية هي ضمان ولاء القبائل للسلطة المركزية، وتسهيل التعبئة العسكرية (الحشود)، ونقل قرارات "المركز" إلى "القاعدة" القبلية. لقد كان هذا المجلس صمام الأمان الذي منع تمرد القبائل الجبلية على سلطة مراكش، عبر إشعارهم بأنهم شركاء في الحكم.

نص تاريخي للتوثيق :يفصل كتاب "الأنساب" في هذه التراتبية قائلاً" :*وجعل (ابن تومرت) أصحابه طبقات... فجعل الجماعة وهم العشرة، ثم الخمسين وهم أعيان القبائل، ثم الطلبة، ثم الكافة*.(1) "

.3مؤسسة "الطلبة" (الحُفّاظ): الجهاز الأيديولوجي والبيروقراطي

لم يكتفِ الموحدون بالتنظيم القبلي، بل أدركوا أهمية الكادر الإداري والمثقف. "الطلبة" هم نخبة من الشباب الموحدي الذين تم تدريبهم تدريباً مكثفاً على العقيدة التومرتية، واللغة العربية، والفقه، والعمل الإداري.

- **أدوارهم المركزية :**شكلوا "العمود الفقري" للإدارة الموحدية؛ فهم خطباء المساجد، وجباة الضرائب، ومراقبو الأسواق (المحتسبون)، وكتاب الدواوين، والمندوبون السياسيون للخليفة في الولايات لضمان عدم استقلال الولاة العسكريين. لقد كانوا يمثلون "الرقابة الأيديولوجية والسياسية" للسلطة المركزية.

.4طبقة "الأشياخ" و"العوام": القاعدة الموجهة

تمثل هذه الطبقة القيادات المحلية وزعماء الأفخاذ الصغرى، نزولاً إلى العوام (الكافة) الذين تقتصر مهمتهم على السمع والطاعة ودفع الجند والمؤن عند إعلان "النفير العام."

الهوامش:

(1)مجهول (يُنسب أحياناً لابن عبد الحليم(، *كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب*، ضمن "وثائق غير منشورة عن التاريخ الموحدي"، تحقيق إيفاريست ليفي بروفنسال (القاهرة: المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، 1955)، 34-36.

(2)أبو بكر بن علي الصنهاجي (البيذق(، *أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين*، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور (الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971)، 31-33.

(3)عز الدين عمر موسى، *الموحدون في الغرب الإسلامي: تنظيماتهم ونظمهم*)بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1991)، 112-118.

المحور الثالث: الهيمنة السياسية وتوحيد المغرب الكبير والأندلس

لم تكن سياسة التوسع الموحدية مجرد غزوات عسكرية لجمع الغنائم، بل كانت استراتيجية جيوسياسية مدروسة تهدف إلى فرض "الهيمنة الشاملة" والقضاء على أي كيان سياسي منافس، انطلاقاً من مبدأ أن "الإمام المعصوم" هو الحاكم الشرعي الوحيد للأمة. وقد تجلت هذه الهيمنة في ثلاث جبهات رئيسية:

.1استكمال السيطرة على المجال المغاربي (توحيد إفريقية وطرد النورمان)

بعد إسقاط عاصمة المرابطين (مراكش سنة 541هـ/1147م)، اتجه الخليفة **عبد المؤمن بن علي** شرقاً لتأمين ظهره الجيوسياسي وتوحيد كامل "المغرب الكبير."

- **القضاء على الدويلات المحلية :**تمكن الموحدون من إسقاط الدولة الحمادية في بجاية (547هـ) والدولة الزيرية، منهين بذلك قروناً من الانقسام السياسي في المغرب الأوسط والأدنى.
- **طرد الاحتلال المسيحي من السواحل :**كان الإنجاز الأعظم في هذه الجبهة هو تحرير السواحل الإفريقية (تونس وطرابلس الحالية) من الاحتلال النورماندي

(مسيحيو صقلية بقيادة روجار الثاني). هذا الانتصار لم يوحد الجغرافيا فحسب، بل منح الموحدين شرعية "الجهاد" والدفاع عن بيضة الإسلام في نظر شعوب المنطقة.

2.احتواء الأندلس والقضاء على "ملوك الطوائف الثانية"

كان دخول الموحدين إلى الأندلس تدريجياً ومعقداً. فبسقوط المرابطين، دخلت الأندلس في فترة فوضى سياسية تُعرف بـ "عصر الطوائف الثاني."

- لم يواجه الموحدون الممالك المسيحية (قشتالة وأراغون) في البداية، بل اصطدموا بزعماء التمرد المحليين المسلمين الذين رفضوا الخضوع لسلطة مراكش، وعلى رأسهم **محمد بن مردنيش**)المعروف بملك شرق الأندلس وصاحب مرسية).
- استغرقت عملية إخضاع ابن مردنيش (الذي تحالف مع المسيحيين ضد الموحدين) سنوات طويلة، ولم تكتمل الهيمنة الموحدية على كامل الأندلس الإسلامية إلا في عهد الخليفة **أبي يعقوب يوسف**، مما يعكس سياسة الموحدين الصارمة في "احتكار العنف الشرعي" وعدم السماح بأي سيادة موازية.

3.الجيوبوليتيك الموحدي: المركز في مراكش و"عاصمة الظل" في إشبيلية

لإدارة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف، ابتكر الموحدون نظاماً إدارياً يعتمد على ربط ضفتي مضيق جبل طارق.

- بقيت **مراكش** هي العاصمة الإمبراطورية المطلقة ومقر الخليفة ومجالس الشورى (العشرة والخمسين.(
- في المقابل، تم اتخاذ **إشبيلية** كـ "عاصمة إدارية وعسكرية" للأندلس. لقد اهتم الموحدون بتحصين إشبيلية وبناء المعالم الكبرى فيها (مثل صومعة الخيرالدة) لتكون قاعدة متقدمة لإدارة "الجهاد" ضد الممالك المسيحية شمالاً، ولتأكيد الحضور السيادي للدولة في شبه الجزيرة الأيبيرية.

الهوامش:

(1)ابن عذاري المراكشي، *البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب*، قسم الموحدين (الجزء الثالث)، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني وآخرون (بيروت: دار الثقافة، 1985)، 45-48.

(2)عبد الرحمن بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر*، الجزء السادس (بيروت: دار الفكر، 1988)، 310-315.

(3)أمبروسيو هويثي ميراندا، *التاريخ السياسي للإمبراطورية الموحدية*، ترجمة عبد الواحد أكمير (مدريد: منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية، 2004)، 122-127.

المحور الرابع: تحديات المركزية وأسباب التآكل السياسي

ببلوغ الدولة الموحدية أقصى اتساع مجالي لها، بدأت تناقضاتها الداخلية تطفو على السطح. لقد تحولت "المركزية الشديدة" التي كانت سر قوة الموحدين في بداياتهم، إلى عبء إداري وسياسي ثقيل عجز الخلفاء المتأخرون عن تحمله، مما أدى إلى تآكل سريع للسلطة يمكن حصره في ثلاثة عوامل بنيوية:

1.الانكسار العسكري والنفسي (معركة العقاب 609هـ/1212م)

شكلت معركة "العقاب" نقطة اللاعودة في التاريخ الموحدي والأندلسي على حد سواء. لم تكن مجرد هزيمة عسكرية تقليدية أمام التحالف الصليبي الذي قاده ألفونسو الثامن، بل كانت "انكساراً استراتيجياً ونفسياً" دمر النخبة العسكرية للموحدين (خاصة الجند النظاميين وحرس الخليفة).

- أدت هذه الهزيمة المروعة إلى كسر هيبة السلطة المركزية، وتراجع قدرة "مراكش" على حماية الأندلس، مما فتح الباب لسقوط الحواضر الأندلسية الكبرى تباعاً (قرطبة، إشبيلية، بلنسية) في العقود اللاحقة.

2.الانتحار الأيديولوجي (إلغاء عقيدة المهدوية)

الخطأ القاتل الذي دمر شرعية الدولة من الداخل كان سياسياً بامتياز. ففي سنة 627هـ (1230م)، أقدم الخليفة **المأمون الموحدي** على خطوة غير مسبوقة؛ حيث تنصل رسمياً من عقيدة "مهدوية ابن تومرت" وأسقط اسمه من الخطبة والسكة (العملة)، بل وسمح بقتل شيوخ الموحدين المعارضين له.

- هذا "الانقلاب الأيديولوجي" أدى إلى تجريد الدولة من مبرر وجودها وشرعيتها الأساسية، وتحولت في نظر القبائل المصمودية من "دولة مقدسة" إلى مجرد سلطة قمعية فاقدة للمشروعية، مما عجل بتفكك العصبية الحاكمة.

3.التشظي المجالي وظهور الدول المستقلة (الورثة الثلاثة)

عجزت مراكش عن الحفاظ على تماسك الأطراف، فبدأ الولاة المحليون في التمرد والاستقلال، مستغلين الضعف الأيديولوجي والعسكري للمركز.

- في **إفريقية (تونس)** :استقل الوالي أبو زكريا الحفصي مؤسساً "الدولة الحفصية" (625هـ).
- في **المغرب الأوسط (الجزائر)** :استقل بنو عبد الواد (الزيانيون) بزعامة يغمراسن بن زيان مؤسسين "الدولة الزيانية" في تلمسان (633هـ).
- في **المغرب الأقصى** :بدأ زحف قبائل زناتة البدوية (المرينيون) الذين استنزفوا ما تبقى من جيوش الموحدين حتى أسقطوا عاصمتهم مراكش نهائياً سنة 668هـ (1269م).

الخاتمة العامة للمحاضرة

مثلت التجربة الموحدية ذروة النضج المؤسساتي والتنظيمي في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط. لقد نجح الموحدون في تحويل فكرة أيديولوجية راديكالية (المهدوية) إلى إمبراطورية عظمى، ووظفوا تنظيماً هرمياً صارماً (مجالس الشورى ومؤسسة الطلبة) لفرض هيمنة سياسية مركزية ربطت مصير الأندلس بمصير الشمال الإفريقي لعقود طويلة.

غير أن هذه "الشمولية السياسية" حملت في طياتها بذور فنائها؛ فاحتكار السلطة، وإقصاء المكونات القبلية الأخرى، ثم التخلي المفاجئ عن العقيدة المؤسسة، كلها عوامل أدت إلى تآكل الشرعية وسقوط الإمبراطورية. ورغم زوال الموحدين كقوة سياسية، إلا أنهم تركوا إرثاً جيوسياسياً عميقاً؛ إذ تشكلت على أنقاضهم الجغرافيا السياسية للمغرب الكبير عبر الدول الثلاث (الحفصية، الزيانية، والمرينية) التي ورثت تقاليدهم الإدارية ورسمت الحدود المجالية التي تقترب كثيراً من الخريطة السياسية لدول المنطقة في العصر الحديث.

الهوامش:

(1)عبد الواحد المراكشي، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي (الدار البيضاء: دار الكتاب، 1978)، 345-348.

(2)عبد الرحمن بن خلدون، *كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر*، الجزء السادس (بيروت: دار الفكر، 1988)، 355-359.

(3)محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: عصر الموحدين وانهيار الأندلس الكبرى*، ج 4 (القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 230-238.